

المثل السائر

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى بعض الإخوان من أهل الكتابة كان اعتدى عليه شخص يدعي الكتابة وليس من أهلها فقلت وقد نيط بسيدنا قلما الخط اللذان ينسب أحدهما إلى المداد وينسب الآخر إلى الصعاد فهو يدير هذا في معركة المقال وهذا في معركة الطراد ولربما سهل أحد قلميه من فوق صفحات الدروج كما تسهل الجياد من تحت أعواد السروج فله احتفال المواطن والمجالس وإليه غناء أصحاب العمائم والقلانس لا كمن لا يجاوز همه طرفي رداءه وإذا نودي لفضيلة قيل إنما يسمع الحي بنداؤه وكم في الناس من صور لا تجد لمعناها أثرا وإذا رأيته قلت أرى خالا ولا أرى مطرا وأي جمال عند من ليس له إلا جمال ثيابه وهل ينفع السيف الكهام أن تجعل من الذهب حلية قرابه وكل من هؤلاء ذنب يسعى بغير رأس ولا له هم إلا في عيشة الطاعم الكاس وإذا اعتبر حاله وجد من البهائم وإن كان منسوبا إلى الناس والسيادة ليست في وشي الثياب ولا في طيب الطعام والشراب وإنما هي في شئين إما شهامة قلم تفرق لها قلوب الغمود أو شهامة رمح تفرق لها قلوب الأسود وكأني بقوم يسمعون هذا وكلهم يمتعض امتعاض المغضب وتتابع نفسه تتابع المتعب ويعترض الشجى في حلقه حتى يغص من غير أن يشرب ولم يزل بالحساد من سيدنا داء يورثهم أرقا ويوسعهم شرقا وكثيرا ما تعرق له جباههم وكذا الميت يندى جبينه عرقا وما أرى لهؤلاء دواء إلا أن يطرحوا عن مناكبهم ثقل المساجلة والحسد إنما يكون ممن يجري مع صاحبه في مضمار المماثلة وكنت أحب أن يقام على الكتابة